

الفصل الثالث

[دلالة التركيب]

دلالة التركيب

لا تبدو الكلمات المفردة في النص Single Words وحدات لغوية منعزلة؛ ولكنها تتصل فيما بينها، حيث يركب المرسل بعضها مع البعض الآخر، وفقاً لمضمون الرسالة، ويربط بينها في وحدة كبرى هي (القرينة) أو (التركيب).

ونحن لا ننظر هنا إلى (التركيب) باعتبار سماته النحوية البلاغية، وإنما ننظر إليه من زاوية أخرى، هي قيمته - في ذاته وعلى حاله - في إبداع الدلالة و(أسلبة) الرسالة.

ونود أن نعالج التركيب في الشعر الجاهلي من خلال صوره الأربع الرئيسية، وهي:

١- القوالب اللفظية ٢- المصاحبات اللفظية.

٣- التعبيرات اللغوية ٤- المزاوجات اللفظية.

وأشير - بادئ ذي بدء - إلى أن الدراسات اللغوية العربية تفتقر إلى عمل استقرائي إحصائي تاريخي مطول بكل صورة من الصور السابقة. ولا تنوي الدراسة التي بين أيدينا الاضطلاع بهذه المهمة؛ لخروجها عن خطتها، وإنما نجتهد في تسجيل (فرعيات) كل صورة، وتصنيفها، وتحليلها، وبيان قيمتها الأسلوبية، آمليين أن نرى هذه الدراسة التاريخية الفنية المطولة في المستقبل القريب.

أولاً: القوالب اللفظية :

وهي تراكييب لغوية عرفية، تجري على ألسنة أبناء اللغة؛ للتعبير عن فكرة أو معنى ما، دون تغيير جوهري في عناصرها وأبنيتها اللغوية. فهي، لذلك، أشبه بما تعرفه كل لغة عادة من كليشيهات ثابتة، يحافظ على مفرداتها وتركيبها النحوي، وتنقل من متكلم إلى آخر انتقالاً آلياً محضاً. وقد يتجاوز بعضها العصر الذي استخدمت فيه إلى عصر آخر، ويبقى البعض الآخر متوقفاً عن الاستخدام، لعوامل اجتماعية وبيئية وحضارية ومختلفة، ويبقى مشيراً إلى سمات لغة تنتمي إلى عصر بعينه.

وتختلف القوالب اللفظية - بالمفهوم البسيط السابق - عن القوالب النحوية مثل: أما وقد، وليس فقط... ولكن أيضاً... الخ، من حيث إن هذه القوالب الأخيرة ذات وظيفة تركيبية محضة، ولا تتعلق بمسألة المعنى.

ومن أمثلة (الكليشيهات) الشائعة في الشعر الجاهلي (تبصّر خليلي) في مثل قول النابغة:

٧-تبصّر خليلي هل ترى من طعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جرثوم^(١)
وقد يتغير تغيراً طفيفاً باستبدال (تبصّر) بمرادفه (تأمل) في مثل قول عبيد بن الأبرص:

تأمل خليلي هل ترى من طعائن يمانية قد تغتدي وتروح^(٢)
وتقابلنا هذه العبارة كثيراً في الشعر الجاهلي، وهي ذات وظيفتين دلالتين في آن واحد: وظيفتها في ذاتها، من حيث دلالاتها على تشويق المسافر إلى طعائن المحبوبة، ووظيفتها الرابطة، من حيث كونها همزة وصل بين المقدمة الطللية الخالصة ومقطوعة وصف الرحيل وعاطفة الحب. ولما كانت القصيدة الجاهلية تبني على هذا النظام المعماري الفني النمطي، كانت هذه العبارة من أشهر العبارات النمطية فيها وأشيعها كذلك. ومن أمثلة هذه القوالب أيضاً عبارة (سل الهم) في مثل قول أوس ابن حجر:

٦-فدعها، وسلّ الهمّ عنك بجسرة عليها من الحول الذي قد مضى كتر
وهذه العبارة لا يتغير موقعها كذلك في أية قصيدة يخرج فيها الشاعر من تصوير عاطفة الحب والمحبة المرتحلة إلى وصف رفيقة سفره: الناقة. ولذلك، فهي قاسم مشترك بين جميع شعراء الجاهلية، باستثناء قلة قليلة ممن دارت أشعارهم حول وصف الفرس والحرب مثل عنترة، أو حول غرض الرثاء كالخنساء. أما الشعراء الآخرون فإن تلك الكليشيهات تلعب في أشعارهم دور (اللازمة اللغوية)، ولكنها لازمة موظفة في (معمار القصيدة) من حيث كونها عبارة مخرج من غرض إلى آخر، وموظفة دلاليّاً كذلك، من حيث هي وحدة كبرى ذات معنى تكميلي، أي يكتمل به السياق.

ثانياً: المصاحبات اللفظية:

والمصاحبات اللفظية Collocations من أهم المسائل التي يعني بها علم الدلالة الحديث. وهي عبارة عن ميل بعض ألفاظ اللغة إلى اصطحاب ألفاظ بعينها دون

(1) شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ الطعائن: جمع طعيبة، وهي المرأة في هودها. والظعن، الارتحال. العلياء: الأرض العالية. جرثوم: ماء بعينه.

(2) ديوانه ص ٤٦

الأخرى، للتعبير عن فكرة ما. فالعلاقة بين هذه الألفاظ - إذا - علاقة مقيدة، وليست علاقة حرة. فلو ذكر أحدهما، استدعى - على الفور - صاحبه الذي يرتبط به في الكلام العادي دلاليًا وتركيبياً. ويعد تغير أحد الطرفين بلفظ آخر انحرافاً عن المعيار وخروجاً على القاعدة، لغايات أسلوبية مختلفة، قد تكون الرغبة في إثارة الانتباه بكسر المألوف، وقد تكون الرغبة في خلق علاقات دلالية جديدة بين أحد اللفظين القديمين واللفظ الوافد. وقد لا يكون الانحراف - في الشعر بخاصة - مقصوداً، وإنما تدعو إليه ضرورات النظم.

ولجمع هذه المصاحبات أهمية كبرى في كشف خصائص اللغة الأدبية، وبيان ما يطرأ عليها من تغيرات عبر العصور، والكشف عما يمكن توقعه من وجود مصاحبات شعرية وأخرى نثرية.

وبديهي أن الشعر الجاهلي هو المادة المرجعية التي ينبغي أن تضاهي بها المصاحبات اللفظية في أي عصر من عصور العربية.

ومن أمثلة المصاحبات اللفظية في الشعر الجاهلي، وهي ما يمكن تسميتها بـ(المصاحبات المستمرة) - أي التي مازالت على حالها حتى الآن - في مقابل ما يمكن تسميته بـ(المصاحبات المنقطعة) - أي التي انقطع استعمالها وصار موقوفاً على فترة تاريخية بعينها - من أمثلة هذا النوع المستمر قول امرئ القيس:

١٨- ولم يرنا كالي كاشح ولم يفش منا لدى البيت سر^(١)

فالفعل (أفشى) يستدعي صاحبه (السر).

وقد يستغل الشاعر الجاهلي هذه المصاحبات للتعبير عن المعنى تعبيراً فنياً جمالياً. وتبدو جماليات التعبير هنا في (التكنية) والبحث عن المعنى في الصورة التي ترسمها المصاحبة. ومن ذلك (جدع أنفه) في قول الخنساء عن صخر:

فدتك سليمٌ: كهلها وغلأمها وجدع منها كل أنف ومسمع^(٢)

و(هاض جناحه) في قولها كذلك:

بكت عيني وحق لها العويل وهاض جناحي الحدث الجليل^(٣)

(1) ديوانه ق ٢٩ ص ١١٢ الكالي: الرقيب. الكاشح: المبعض المولي عنك بوده

(2) ديوانها ص ٩٧

(3) ديوانها ص ١١١

فالمعنى في المصاحبتين السابقتين ليس هو المعنى الحقيقي المباشر؛ لأن الأولى كناية عما ألحقه صخر بقبيلة (سليم) من ذلة وهوان، وترسمهما تلك الصورة (الكاريكاتيرية) لتلك القبيلة وقد جدعت أنوفها وقطعت آذانها. والأخرى كناية عما أصاب الخنساء بدنياً ونفسياً، لوفاة أخيها صخر.

على هذا النحو، نرى الاستخدام الشعري الخاص للمصاحبات في مواضع أخرى مثل (نكصوا على أعقابهم) في قول أوس بن حجر:

٤٦- نكصتم على أعقابكم يوم جثم تزجئون أنفال الخميس العرمم^(١)
فهي كناية عن الهزيمة والفرار.

وربما يستبدل الشاعر التعبير المباشر الفاتر عن المعنى، بمصاحبة لفظية تقدر على تصوير الحدث، كأن تقوم المصاحبة (غض الطرف) مقام قولنا: لم ينظر، ونحوه. وهذه المصاحبة في مثل قول الأعشى:

٢١- يزيدُ يغض الطرفَ ذوي كائنا زوى بين عينيه عليَّ الحَاجمُ^(٢)

ويشترك طرفاً كل مصاحبة من المصاحبتين الأخيرتين - كما ترى - في تصوير (السلوك الحركي) للأرجل في الأولى، والعين في الثانية. ودراسة السلوك الحركي لأعضاء الجسم لغوياً صار من مسائل علم اللغة الحديث في ارتباطه بعلم الاتصال، وتعرف باسم علم الكينات Kinesics^(٣).

ولم تخل المصاحبات اللفظية في الشعر الجاهلي من التبديل بين عناصرها، فالشائع استخدام الفعل (فرّج) مع لفظة (الكربة). وقد استبدلته الخنساء بالفعل (فك)، في قولها:

والمال عند ذوي البقية والغنى خذم شرائد
فيفك كربة من تمخخ نقيّة الدول الجهائد^(٤)

وقد رأينا فيما مضى مصاحبة (أفشى) للفظة (السر). وقد استبدلها الأعشى بكلمة (الطرف) في قوله:

(١) ديوانه ق ٤٨ ص ١٢٤

(٢) ديوانه ق ٩ ص ٧٩

(٣) انظر في ذلك: دراسات في علم اللغة للدكتورة فاطمة محبوب، دار النهضة العربية (١٩٧٦) ص ١٥٩ وما بعدها.

(٤) ديوانها ٣٥، ٣٦ المال: الإبل. ذو البقية: الذين لهم بقية من خصب. الخدم: واحداً خذوم، السريعة. تمخخ العظم: أخرج محه، وهو ما تسميه العامة النخاع. النقية: المخ. الدول: صرف الدهر. الجهائد: المتعبة الشاقة.

- ٥- ويهماء قَفَر تخرج العينَ وسطها
٦- يقول بما ذو قوة القوم إذ دنا
٧- لك الوليل أفش الطرف بالعين حولنا
وتلقى بما بيض النعام ترائكا
لصاحبه إذا خاف منها المهالك
على حَذَرٍ، وابق ما في سقائكا^(١)

وربما كان التغيير الذي أنتج المصاحبات الجديدة (فك الكربة) و(أفشى الطرف) راجعاً إلى إحساس الشاعر بعجز المصاحبات التقليدية عن وصف الحدث، فضلاً عما تثيره المصاحبات الجديدة من غرابة، وما تحققه من إدهاش ومفاجأة، فإن العناصر الوافدة فيها أشد تناسباً مع المواقف التي يرسمها الأعشى والخنساء، وأقوى دلالة على المعنى، فالفك أقوى عادة من التفريج، ويحتاج إلى جهد أشد. والإفشاء أقدر من غيره على نقل صورة الناظر وحركة عينيه المتفشية في كل اتجاه، كما يتفشى السر هنا وهناك!

ثالثاً: التعبيرات اللغوية:

للتعبير سمات بنائية ووظيفية معينة، فهو عبارة عن كلمتين أو أكثر، ترتبط عناصره فيما بينها ارتباطاً دلالياً عضوياً وثيقاً. وقد يتحدد معناه الإجمالي من حصيلة المعاني المفردة. ولكن قد يطلق التعبير ويراد لازم معناه، فلا يكون المعنى الحرفي لعناصره هو المقصود تماماً. وهذا النوع كالكناية.

وربما اعتمد التعبير على كلمة أساسية تتكرر في صورة أخرى، ويراد لازم معناه كذلك. وقد يصاغ التعبير صياغة مجازية، فيأخذ صورة الأسلوب اللغوي.

إن التعبير اللغوي يتسم - بعامه - بأن ألفاظه المفردة، تضع مميزات الفردية وخواصها في خدمة المجموع، في خدمة التركيب الإجمالي Gesamtfügung، بحيث تستغل الألفاظ المفردة في سياق المعنى Sinnzusammenhang لطاقات أسلوبية ودلالية^(٢).

والتعبير - بمعناه الضيق - هو - كما يقول بورجر Burger - عبارة عن سلسلة لا يمكن بحال من الأحوال تفسير معناها الإجمالي Gesamtbedeutung من خلال المعنى المطلق للكلمات^(٣).

(١) ديوانه ق ١١ ص ٨٩ بهماء: صحراء عمياء مطموسة المسالك. ترائك: جمع تريكة، وهي المتروكة. ذو قوة القوم: رئيسهم. أفش الطرف: انظر.

(2) Kühn, Fauselt, Stilistische Mittel und Möglichkeiten der deutschen Sprache, Leipzig, 4., Auflage (1969), S. 89

(3) Burger, Harsid, Idiomatik des Deutschen, Tübingen, (1973), S. 18

وقد حدد ميلتس H. M. Militz خمس سمات أساسية للتعبير، هي قابلية الإعادة والاسترجاع، واستحالة الترجمة الحرفية، وعدم القابلية للتجزئة، والغموض، والثبات^(١).

وتبدو قيمة التعبير الأساسية في إبداع المعنى، في الإيحاء بالمعنى، وعدم المباشرة، والتعدد، واقتناص لازم المعنى، بالاستجابة مع عناصره، وإعمال الذهن لفهم المركب التعبيري الجديد. وتبدو قيمته كذلك في تميزه بالتعبيرية المختزلة verkürzte Expressivität فهو يعبر عن المعنى في صورة لغوية مختزلة، والاختزال من أهم سمات لغة الشعر. ولذلك، يمكننا اعتباره نوعاً من أنواع الاقتصاد في استخدام المفردات. ويصيب التعبير أسلوب الأديب بصبغة خاصة، وهو من أهم العوامل المساعدة على إبراز الكيف الأسلوبی Stilstische Qualität للعمل الأدبي.

وليس من غرضنا في هذه الدراسة استقراء جميع التعبيرات اللغوية في الشعر الجاهلي وأحصاؤها. ولكننا نستطيع هنا - على أساس (الموديل Modell) أو نمط الاستخدام sprachliche Gebrauchsmuster التمييز بين خمسة أنماط رئيسية للتعبير في الشعر الجاهلي، وهي:

- ١- التعبيرات التي تأخذ شكل المصاحبة اللفظية.
 - ٢- التعبيرات التي تعتمد على وحدة لغوية أساسية، تعد بمثابة (المركز) الذي يدور حوله معنى التعبير العام.
 - ٣- التعبيرات ذات السمات التركيبية الخاصة.
 - ٤- التعبيرات التي تأخذ شكل الأسلوب اللغوي. وهي تعبيرات ذات سمات بلاغية، يبرز فيها الإبداع اللغوي الفردي، حيث تصاغ على نحو شعري مجازي.
 - ٥- التعبيرات المثلية، وهي تعبيرات تعتمد على الأمثال الشائعة.
- ولننظر الآن في حالات كل نمط:

(1) Militz, Hans-Mantred, Zur gegenwärtigen Problematik der Phraseologie, aus: Beiträge zur Romanischen Philologie XI Jahrgang (1972), Heft 1, (SS. 95-117). S. 97

١- تعبيرات المصاحبة:

وهي تختلف عن المصاحبات اللفظية البحتة في كونها تمتلك سمات التعبير الرئيسية السابقة، وفي عدم قيامها - أساساً - على معاني وحداتها اللغوية المباشرة، وإنما على أساس لازم المعنى الإجمالي.

ومن نماذج تعبيرات المصاحبة (حقن الدماء) في قول قيس بن الخطيم:

٦- دعوتُ بني عوف لحقن دمائهم فلما أبوا ساحت في حرب حاطب^(١)

وتبدو المصاحبة اللفظية في طول مصاحبة (دماء) لكلمة (حقن). ومعناها وقف القتال. ومن أمثله (جبر العظم) في قول أوس بن حجر في الرثاء:

٣- ألهفاً على حسن أخلاقه على الجابر العظم والحارب^(٢)

حيث تستخدم (العظم) مصاحبة للفعل (جبر) ومشتقاته. ومعناها الذي يزيل الآلام. ومنه (شزر إليه الطرف) كقول أوس كذلك:

٣٢- إذ يشزرون إلى الطرف عن عُرْض كأن أعينهم من بغضهم عُرور^(٣)

فالطرف تصاحب الفعل (شزر). ومعناها: الذين ينظرون إلى نظراً منكراً ينم عن عداوة. ومنه (قلم أظفاره) في قول النابغة:

٨- وبنو قُعين لا محالة أنهم آتوك غير مقلمي الأظفار^(٤)

فالتقليم هو المصاحب اللفظي للأظفار. والأظفار رمز إلى أدوات القتال. وذلك أن أكثر السباع وجوارح الطير تصيد بمخالبها وتتحصن بها. وهم غير مقلمي الأظفار، أي قد أتوا بسلاحهم متهيئين للقتال.

٢- تعبيرات الوحدة اللغوية المركبة:

وكما أشرت آنفاً، فإن هذه الوحدة المركبة هي التي تمتلك السلطة المباشرة في توجيه المعنى العام للتعبير، وإن تغير المعنى النهائي من صورة إلى أخرى تبعاً للوحدات اللغوية الهامشية، سواء أكانت أفعالاً أم أسماء.

ويلاحظ أن هذا النوع أكثر وقوعاً في الشعر الجاهلي من سابقه. وهو أقل غموضاً وثباتاً من أنواع التعبير الأخرى، وإن احتفظ بسمات التعبير الأخرى المعروفة كقابلية الإعادة والاسترجاع، واستحالة الترجمة الحرفية، وعدم القابلية للتجزئة.

(١) ديوانه ق ٤ ص ٨٠ (بتحقيق د/ناصر الدين الأسد) وبنو عوف: يريد عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس. ساحت: تابعت. حاطب: حليف لهم قتل فكانت بينهم حرب في قتله.

(٢) ديوانه ق ٤ ص ١٠ والحارب: الحارب.

(٣) ديوانه ق ٢١ ص ٤٤ والعرض في الأصل جانب العنق ونظر إليه عن عرض: أي من جانب عنقه دلالة على الكبرياء والاحتقار.

(٤) ديوانه ق ٥ ص ٥٦

ومن أهم الوحدات المركزية في الشعر الجاهلي:

١- **العصا:** وهي أكثر الألفاظ شيوعاً في المعجم الشعري الجاهلي. وقد اعتمد عليها الشاعر الجاهلي - لما تتمتع به من دلالات رمزية مختلفة - في صنع كثير من التعبيرات اللغوية. وتبدو أهميتها في حياة البدوي في استخدامها لزجر الدابة وبناء الخيمة ونحو ذلك. ومن نماذجها (وضع عصاه) في قول زهير:

١٥- فلما وَرَدَنَّ الماءَ زُرْقًا جمامه وضعنَ عِصِيَّ الحاضر المتخيم^(١)

ووضع العصا تعبير عن الاستقرار بالمكان والإقامة فيه. ومنها (انشقت عصاهم) في قول الشماخ بن ضرار، عن النساء المشبهات ببقر الوحش:

٥- وَعَيْنَ النَّدى حَتَّى إِذَا وَقَدَ الحصى ولم يبق من نوء السماء بُروقُ

٦- تصدّع فيه الحيّ وانشقت العصا كذلك النوى بين الخليط شقوق^(٢)

أي انقسموا وتفرق جمعهم.

ومن هذا النوع (استطارت عصاهم) في قول قيس بن الخطيم:

٣- لم أدر قبل النوى ببيئهم حتى استطارت عصاهم شُعَبًا^(٣)

٢- **الحبل:** وهي وحدة لغوية ذات شيوع ملحوظ في المعجم الشعري الجاهلي. و(الحبل) وسيلة البدوي عند شد الخيام أو شد الرحال على الدواب. وقد دخلت هذه الوحدة في تعبيرات لغوية مختلفة، تدل على انقطاع العلاقة بين الرجل والمرأة حيناً، وقد تدل على معانٍ أخرى متباعدة حيناً آخر. يقول النابغة:

بانت سعادٌ وأمسى حبلها انجدما واحتلّت الشرعَ فالأجزاء من إضماً^(٤)

ويقول الأعشى:

١- بانت سعادٌ، وأمسى حبلها انقطعا واحتلّت الغمر، فالجدّين، فالفرعاً^(٥)

وانجدام الحبل أو انقطاعه دلالة على بعد المحبوبة وانقطاع وصالها.

ويدل (الحبل) - أيما وقع في مثل هذه السياقات - على هذا المعنى العام.

(١) ديوانه (المعلقة) ص ٢٢، وردن الماء: أتنيه. جمامه - بفتح الجيم - جمع جم، وهو ما تجمع وكثر. وزرقة الماء من شدة صفاء لونه، لم يورد قبلهن ولم يحرك.

(٢) ديوانه ق ١١ ص ٢٤٢ الندى هنا: البت. وقد الحصى: اشتد حره، وهو كناية عن اشتداد الحر. والسماك: هو السماك الأعزل، وله نوء. بروق: جمع برق، والمراد به البرق الذي ينتج مطراً. تصدع الحي: تفرقوا، لانقطاع المطر واشتداد الحر.

(٣) ديوانه ق ١٤ ص ١٧٣

(٤) ديوانه ق ٦ ص ٦١ احتلت: نزلت. الشرع: موضع. الأجزاء: جمع جزع - بفتح الجيم - وهو منعطف الوادي ومنحناه، وخص الأجزاء لأنها مواضع الخصب. إضم: اسم واد.

(٥) ديوانه ق ١٣ ص ١٠١

ويحدد المعنى النهائي بالطبع عن طريق الفعل المصاحب؛ فقد لا تنقطع العلاقة انقطاعاً تاماً، وإنما يصيبها الوهن والضعف، ويعبر عن ذلك - حينئذ - (بوهن الحبل) كما في قول زهير:

٣- وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت فأصبح الحبل منها واهنا خلَقاً^(١)

وقد يأخذ التعبير بالحبل معنى آخر، ويخرج به الشاعر من حقله الدلالي الأساسي، ليعني به - داخل التعبير - معنى جديداً، كما في قول الأعشى:

١٢- وطاوعت ذا الحلم فافتادني وقد كنت أُمْنَع منه الرُسْن^(٢)

فالحبل هو مقود الدابة، ونقله الأعشى إلى الإنسان، ويعني به هنا أنه - وإن طاوع ذا الحلم فأسلم له القياد - قد كان وعراً لا يلين.

ويدل الحبل - داخل التعبير - على معنى آخر، كما في قول عبيد ابن الأبرص:

ظلمت تُعْنِي أن أصبت وليدة كأن معداً أصبحت في حبالكا^(٣)

ومعنى التعبير (أصبح في حباله) أنه تمكن من (معد)، ونال منها، فأوقعها في أسرهِ. فضلاً عن الحبل والعصا، هناك وحدات لغوية مركزية أخرى اعتمد عليها الشاعر الجاهلي في صنع التعبير، وإن كانت أقل شيوعاً وانتشاراً.

ومن ذلك النبات والشجر، كما في قول عمرو بن كلثوم:

وقد هرت كلاب الحلي منا وشذ بنا قتادة من يلينا^(٤)

والقتاد شجر ذو شوك، واحدته قتادة. والتشذيب - كما نعرف - نفي الشوك والأغصان الزائدة والليف عن الشجر. ومعنى التعبير - بناء على ذلك - كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا. يقول الأعشى:

٥- أتانا عن بني الأحرا ر قول لم يكن أمما
٦- أرادوا نحت أثلتنا وكنا نمنع الحطما^(٥)

و(الأثلة) شجرة طويلة، استند إليها الأعشى في صنع التعبير الطريف (نحت أثلتهم) ومعناه - ببساطة - إضعافهم وسلب قوتهم (ولاحظ دلالة التعبير في الشطر الثاني من البيت الثاني على الأنفة والمنعة).

(١) ديوانه ق ٤ ص ٥٦

(٢) ديوانه ق ٢ ص ١٥ وذو الحلم: العاقل الناصح.

(٣) ديوانه ص ١٠٢

(٤) شرح المعلقات ص ١٧٣ وهرت منهم كلاب الحلي: أي أنكروهم.

(٥) ديوانه ق ٥٦ ص ٣٠١ الأمم: الواضح البين من الأمر. الحطم: جمع خطام (بكسر الحاء)، وهو الحبل الذي يشد على أنف البعير، ليقاد به.

فضلاً عما سبق، اعتمد الشاعر الجاهلي في خلق التعبير اللغوي على أسماء بعض الحيوانات ذات الصفات المعروفة، ومن ذلك قول النابغة:

١٣- سَأْكُمُ كَلْبِي أَنْ يُرِيْبِكَ نَبْحُهُ وَإِنْ كُنْتُ أَدْعِي مَسْحَلَانَ، فَحَامِرًا^(١)
وكم أي كف.

ولم يشأ النابغة الإفصاح عن معناه على نحو مباشر، وإنما استعان في ذلك بالتعبير اللغوي الطريف (سأكعم كلبى). ومعناه: سأكف عنك لساني وهجائي.

ويعتمد معنى التعبير على الوحدة المركزية (الكلب) ذلك الحيوان المعروف بكثرة نباحه! وقد جعل أوس بن حجر (النعامة) وحدة مركزية كذلك في قوله:

٣٦- لَوْلَا الْهُمَامُ لَقَدْ خَفْتُ نَعَامَتَهُمْ وَقَالَ رَاكِبُهُمْ فِي عُصْبَةِ سَيَرَا^(٢)

و(خفت نعامة الأعداء) أي فروا من الخوف. وتعتمد دلالة التعبير الأساسية على التقاط صفة الخوف الشديد والفرار السريع في ذلك الحيوان.

ومن ناحية أخرى، استغل الشاعر الجاهلي بعض أدوات الحرب في تشكيل التعبير، ومثل (مَشِطْتَ قَنَائَهُمْ)، في قول سحيم بن وثيل الرياحي:

١١- فَإِنْ قَنَاتْنَا مَشِطًّا شَطَاهَا شَدِيدٌ مَدُّهَا عُنُقَ الْقَرِينِ^(٣)

و(مشطت قنائهم) تعني اشتدوا وامتنع جانبهم.

بناء على ما سبق، نرى أن الوحدات اللغوية المركزية التي اعتمد عليها الشاعر الجاهلي في عمل التعبيرات من هذا النوع، هي تلك الوحدات التي تطلق على مسميات ترتبط بحياة البدوي وحاجته العملية ارتباطاً شديداً، وتمثل بيئته تمثيلاً مباشراً. وهي وحدات ذات دلالات رمزية ثابتة، فقد تتغير تلك الدلالات تبعاً للسياق والأفعال المصاحبة. وهي وحدات ذات معدلات تكرار مرتفعة نسبياً في المعجم الشعري الجاهلي، كالحبل والعصا، وبعض أنواع الشجر، والحيوان، وأدوات الحرب.

٣- التعبيرات التركيبية :

وهي تلك التعبيرات التي تظهر سمات تركيبية خاصة، تبدو - كما يفيد استقراء المادة اللغوية للشعر الجاهلي - في ثلاث صور مختلفة:

الأولى: هي التي تكون نواة التعبير فيها كلمة واحدة تتكرر بمادتها وصيغتها. ومن أمثلتها (جازه كيل الصاع بالصاع) في قول أبي قيس ابن الأسلت الأنصاري:

(١) ديوانه ق ٧ ص ٦٩

(٢) ديوانه ق ٢١ ص ٤٥

(٣) الأصمعيات (أصمعية ١) ص ٢٠

١٢- لا نألم القتل وتجزى به الـ أعداء كيلك الصاع بالصاع^(١)

أي يردون القتل بقتل مثله.

والثانية: هي التي تكون نواة التعبير فيها كلمة واحدة تتكرر بمادتها فحسب، وتتغير صيغتها، ومن ذلك (كفاه اللتيا والتي) في قول علباء ابن أرقم:

٩- ولقد رأيت ثأي العشيرة بيناه وكفيت جانبها اللتيا والتي^(٢)

و(اللتيا) تصغير (التي). وقد جعلهما الشاعر في هذا التعبير الطريف اسمين للصغيرة والكبيرة من الدواهي، ولهذا استغنيا عن الصلة. ويتشابه التعبير السابق في كيفية بنائه مع التعبير (جاءوا بقضهم وقضيضهم) في قول أوس بن حجر:

٥- وجاءت سليمٌ قضُّها وقضيضُها بأكثر ما كانوا عديداً وأوكعوا^(٣)

و(القض) الحصى الكبار. و(القضيض) الحصى الصغار.

ومعنى التعبير: جاءوا بأجمعهم، الكبير منهم والصغير. ومن أمثلة هذه الصورة كذلك (احترث حرثه) في قول امرئ القيس، يخاطب الذئب:

فقلت له لما عوى: إنَّ شأننا قليل الغنى إن كنت لما تَعَوِّل

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يَهْزَلِ^(٤)

وأصل (الحرث) إصلاح الأرض وإلقاء البذور فيها، ولكنه يعني هنا السعي والكسب. كقوله تعالى: "من كان يريد حرث الآخرة.." الآية.

والثالثة: هي التي تبني على أساس الكلمة وضدها. ومن ذلك (لا يُحلى ولا

يُمر) في مثل قول الخنساء في صخر:

كنتَ المفرج للكروب، فقد أصبحت لا تُحلي ولا تُمري^(٥)

أي أصبحت لا تتكلم بحلو ولا بمر، ولا تفعل حلواً ولا مرّاً. وقد جعلت الخنساء (تُمري) بدلاً من (تُمر) مراعاة للقافية.

(١) المضليات (مفضلية ٧٥) ص ٨٥

(٢) ديوانها ص ٧١

(٣) الأصمعيات (أصمعية ٥٦) ص ١٦٢

(٤) ديوانه ق ٢٨ ص ٥٧ والعديد: العدد. وأوكعوا: اشتدوا في القتال.

(٥) شرح المعلقات السبع ص ٣٩

والرابعة: هي التي تكون أشبه بالقالب اللغوي، لأنها تأخذ شكلاً تركيبياً جامداً، لا يتغير، وليس لها نواة. ومن أمثلتها (لم يلو على أحد) في قول عبيد بن الأبرص، في المدح:

القائدُ الخيلَ تَرْدَى في أعنتها وردَ القطا هجرتَ ظمأً إلى الثَّمَدِ
من كل عَجَلَزَةٍ بادٍ نواجذُها على اللجامِ تُباري الركبَ في عَنَدِ
وكل أجردَ قدما لت رَحالته نَهْد المراكِلَ فَعَم نائِي الكَتَدِ
حتى تعاطينَ غَسَّانا، فحربُهم يوم المَرارِ، ولم يَلُوءوا على أحدٍ^(١)
ومعناه: فروا، لا يلتفتون إلى أحد.

٤- التعبيرات الأسلوبية:

وهي تلك التعبيرات التي تأخذ شكل الأسلوب اللغوي، ويكون تركيبها اللغوي من عدة كلمات مقصوداً لغاية أسلوبية، هي تحسين الأسلوب وتجميله، ولا يعول عليها - أساساً - بهدف الاختزال. فقد يمكن أداء معنى كل منها بكلمة واحدة، إذا أردنا ذلك. والحق أن هذا النمط يمكن أن نصنفه - داخلياً - إلى صنفين اثنين: أولهما: التعبيرات التي تعتمد على الكناية، إذ يراد لازم معناها، ولا يراد معناها حرفياً. ومن ذلك هذا التعبير الطريف (يرقم على الماء) في قول أوس بن حجر:

١- سأرقيم بالماء القُراحَ إليكمُ على نأيكم إن كان للماء راقم^(٢)

فيقال: هو يرقم الماء، ويرقم حيث لا يثبت الرقم، أي يعمل ما لا يعملُه أحد لحذقه ومهارته.

والآخر: هو التعبيرات التي تفيد معانيها بألفاظها، فهي أكثر مباشرة ووضوحاً في الدلالة على المعنى، ودرجة (التكنية) فيها أقل من الصورة السابقة. ومن ذلك (حزن عليه لسانه) في قول امرئ القيس:

٥- إذا المرء لم يَخْزِنْ عليه لسانه فليس على شئ سواه بِخَزَانٍ^(١)

(١) ديوانه ص ٥٧ تردى: ترجم الأرض بموافرها. هجرت: سارت في الهجر. الثمد: الماء القليل. النواجذ: أقصى الأضراس. العجلزة: الشديدة. عند: تذهب على المرح. والرحالة: السرج. القعم: الممطى. الكند: مجمع الكتفين. نهْد المراكِل: ضخم الوسط. يوم المَرار: من أيام العرب.

(٢) ديوانه ق ٤٧ ص ١١٦

أي لم يتحكم فيه. و(أقامه في كبد) في قول عبيد بن الأبرص:
لو هم حُماتك باخمي حموك ولم تُترك ليوم أقام الناس في كبد^(٢)
أي يوم شدة وضيق. و(شط المزار) في قول الأعشى:
١٠- فلئن شطّ بي المزار لقد أغـ — دو قليل الهُموم ناعم البال^(٣)
أي بعدت.

٥- التعبيرات المثلية:

وهي — كما ذكرنا آنفاً — تلك التعبيرات التي تعتمد في جوهر معناها على (مضرب المثل) المتعارف عليه، ويتميز بناؤها اللغوي بقيامه على جزء من تركيب المثل، أو على التغيير الطفيف في هذا التركيب. فهي — إذا — ليست إلا نقلاً متصرفاً للمثل في صورة تعبيرية، حيث يراد لازم معناه.
وهذا النمط قليل الدوران في الشعر الجاهلي. ومن أمثله (بينهم دق منشم) في قول الأعشى:

٣٥- أراني وعمرُوا بينا دقْ منشم فلم يبق إلا أن أُجنَّ ويُكلِّبا^(٤)
ومنشم — كما نعرف — اسم امرأة عطارة من (همدان)، كانوا إذا تطيبوا من عطرها نشب بينهم القتال، فتشاءموا منها.

ومن ذلك أيضاً قول أوس بن حجر في قوس ابتاعها من صاحب له:

٢٣- وأزعجه أن قيل شتان ما ترى إليك وعود من سراء معطل
٢٤- ثلاثة أبرادٍ جياذ وجرجة وأدكن من أرى الدبور معسل
٢٥- فجئت ببيعي مولياً لا أزيده عليه بهاء، حتى يؤوب المنخل^(٥)

فقله (حتى يؤوب المنخل) مثل يضرب لليأس من الشيء. أي أيأسه الشاعر من أن يزيد له في ثمن هذه القوس. والمنخل هو (المنخل الشكري) الشاعر المعروف.

(١) ديوانه ق ٩ ص ٨٠

(٢) ديوانه ص ٥٦

(٣) ديوانه ق ١ ص ٣

(٤) ديوانه ق ١٤ ص ١١٧ الكلب: داء يشبه الجنون، يأخذ الكلاب، فعض الناس، ويصاب من تعضه بمثل هذا الداء.

(٥) ديوانه ق ٣٧ ص ٩٧-٩٨ والسراء: شجر النع. معطل: غير صالح. وثلاثة بدل من (ما). أي دفع له في هذه القوس ثلاثة أبراد

جياذ وجرجة وزقا من العسل. والجرجة: قطعة من الأدم. الأدكن: يريد زقا أدكن. الأرى: العسل. الدبور: جمع دبر وهو النحل

وكان النعمان قد اتهمه بامرأته (المتجردة)، فحبسه، ثم انقطعت أخباره. وصار ذلك مثلاً لما لا ينتظر عودته.

ويكتسب التعبير المثلي - على نحو ما نرى في النموذجين السابقين - دلالة رمزية اعتماداً على دلالاته العرفية المسبقة، وهي دلالة رمزية تنحصر في المعنى العام للمثل؛ كالتشاؤم في التعبير الأول، واليأس من نوال المطلوب، في التعبير الثاني.

بناء على ما سبق يمكننا الوصول إلى الملاحظات والنتائج التالية:

أولاً: أن الشاعر الجاهلي قد وعى ما يتمتع به التعبير من قيمة لغوية وأسلوبية عالية في عرض الفكرة وتجسيمها، والإفصاح عن المعنى على نحو فني غير مباشر. كما وعى ما يتمتع به التعبير - في الوقت نفسه - من قيمة اختزالية تناسب لغة الشعر.

ثانياً: اعتمد الشاعر الجاهلي في تشكيل التعبير على كثير من مسميات الجسم ومتعلقاته، كالطرف، والأظافر، والدماء، والعظم، وغيرها. أو الأدوات والموجودات المادية التي يستخدمها في حياته اليومية العملية كالحبل والعصا ونحوهما. أو ما عرفت به بيئته من حيوان كالكلب والنعامة. أو ما يستخدمه في معاملاته كالصاع. أو على التشكيل اللغوي لبعض الألفاظ بطريقة أو أخرى، كالتى والتتيا، والقض والقضيض. أو على ما شاع بين الناس من أمثال كالذي رأيناه الآن عن منشم والمنخل. أو على ما تتمتع به العربية من قدرات وإمكانات أسلوبية، على نحو ما رأينا في مثل: خزن اللسان، والرقم على الماء ونحوهما.

ثالثاً: أفاد الشاعر الجاهلي من بعض الألفاظ التي تتمتع بقيمة دلالية بمزية شبه ثابتة كالعصا والحبل، في صنع تعبيرات هي من أكثر أنماط التعبير دورانا في الشعر الجاهلي، بحيث صارت قاسماً مشتركاً بين سائر الشعراء.

رابعاً: من التعبيرات الشعرية الجاهلية ما لا يزال مستخدماً في العربية الفصحى الحديثة، كحقن الدماء وجبر العظم ونحوهما.

خامساً: إذا قارنا بين التراث الشعري الجاهلي وشعرنا العربي في مراحل التاريخ الأخرى حتى العصر الحديث، رأينا أن الشعر الجاهلي يكاد يفوق الشعر العربي في عصوره المختلفة في الاستعانة بالتعبيرات اللغوية لإبداع الدلالة. وربما خرج عن ذلك

قلة قليلة من الشعراء في العصر الأموي، الذين تقترب أشعارهم: شكلاً ومضموناً من الشعر الجاهلي، لعل أبرزهم (ذو الرمة).

رابعاً: المزاوجات اللفظية:

وتبدو في الجمع بين لفظتين من حقلين دلاليين مختلفين، في صورة المضاف (=الطرف الأول = ط ١) والمضاف إليه (=الطرف الثاني = ط ٢) لتحقيق غايات أسلوبية مختلفة، حيث يقوم ط ١ بدور تشخيص ط ٢، وبيان هيئته، أو إظهار شدته ووفرتة، أو تمثيل حدوثه فنياً، أو غير ذلك من الصفات الأخرى على نحو بلاغي جمالي، حيث لا يعبر عن صورة ط ٢ تعبيراً مباشراً، وإنما برسم صورته حسبما يملئها الخيال الشعري ممثلاً في اختيار ط ١.

والحق أن ما يمكن أن تحمله المزاوجات اللفظية من دلالة إيحائية، وجدة، وطرافة، إنما يتوقف على قدرة الشاعر ومهارته الفنية في اختيار الطرف الأول.

وإذا نظرنا إلى طبيعة المزاوجات اللفظية في الشعر الجاهلي، لاحظنا - بادئ ذي بدء - أن الشاعر الجاهلي قد اعتمد اعتماداً كبيراً في صنع مزاوجاته على جعل ط ١ من حقل الموجودات الطبيعية، لاسيما ما يدخل منها في حقل (الماء) بأشكاله وحالاته المختلفة، فمنه (الغبية) في قول عنتره:

وما نذروا، حتى غشنا بيوهم بغيبة موت مسبل الودق مزعف^(١)

وتوحي (غبية الموت) بتسلط الموت وسقوطه فوق الرعوس، بعد أن أصبح كدفقة المطر التي لا نملك لها منعاً ولا رداً.

ومنه (الشآبيب) في قول الأعشى:

١٢-فصبّهم بالحنو، حن قراقِرٍ وذی قارها منها الجنودُ ففلّت

١٣-على كل محبوك السراة، كأنه عقاب هوت من مرقب إذ تعلّت

فجادت على الهامرُز وسط بيوهم شآبيب موت أسبلت واستهلّت^(٢)

وتشترك (شآبيب الموت) مع المزاوجة السابقة في دلالتها الإيحائية العامة، وإن كانت تفوقها في الدرجة، باعتبار الصيغة. وقد تلعب لفظة (بحر) أو (موج) دور ط ١ مع كلمة (المنايا) التي يلاحظ وقوعها جمعاً غالباً، كقول عنتره:

(١) ديوانه ص ١٤٣

(٢) ديوانه ق ٤٠ ص ٢٦١ الحنو: المنحنى في الطريق. وحنو قراقِر: موضع قرب الكوفة جرت فيه المعركة المشهورة بين الفرس وبكر بن وائل. والهامرُز: أحد قادة كسرى في هذا اليوم. فلت: هزمت وشردت. السراة: الظهر. فرس محبوك السراة: محكم الخلق الشديد. المرقب: الموضع المرتفع الذي يشرف فوقه الرقيب. شآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر. أسبل المطر: هطل. استهل وأهل: اشتد انصبابه مع صوت.

وسرت إلى العراق بلا رفاق^(١)

فخضت بمهجتي بحر المنيا

أو كقوله عن فرسه:

شقتُ بصدري موجَ المنيا وخضت النفع لا أخشى اللحاق^(٢)

وتصور (بحر المنيا) اتساع مدى الموت وانتشاره، بينما تصور (موج المنيا) شدته وطغيانه. ويعد عنتره أكثر الشعراء الجاهليين استخداماً لمثل هذه المزاوجات. ويرجع ذلك إلى كثرة دوران كلمة (الموت) ومرادفاتها في شعره، وقد أدى ذلك إلى التنويع في صورة ط ١ المختار لهذه الكلمة، ففضلاً عن (الغبية) و(الموج)، تقابلنا مزاوجات أخرى مثل (كؤوس المنيا) في قوله:

نديمي رعاك الله، قم غن لي على كؤوس المنيا من دم حين أشرب^(٣)
(و(نار المنيا) في قوله:

ولما أوقدوا نار المنيا بأطراف المثقفة العوالي
طفأها أسود من آل عبس بأبيض صارم حسن الصقال^(٤)

وهاتان المزاوجتان من المزاوجات الشائعة في الشعر الجاهلي، وإنما يتجلى الإبداع الفردي عنده في مزاوجات أخرى أكثر طرافة مثل (سوق المنيا) في قوله:

أفمتُ بصارمي سوقَ المنيا ونلتُ بذابلي الرتبَ العلية^(٥)

وتبدو الطرافة في اختياره كلمة (سوق)، التي توحى بالجلبة، والتحليل، وتعدد صور الأشياء. وتذكرنا هذه المزاوجة (بسوق الجلال) في قول الأعشى:

١- فيا أخويناه من عباد ومالك ألم تعلمنا أن كل من فوقها لها
٢- وتستيقنوا أنا أخوكم وأنا إذا سنحت شهباء تُخشون فالها
٣- نُقيم لها سوقَ الجلال ونغتلي بأسيا فنا حتى نوجه خالها^(٦)

(١) ديوانه ص ٤٩

(٢) ديوانه ص ١٦٢

(٣) ديوانه ص ٦٥

(٤) ديوانه ص ١٦٩ والمثقف: الرماح المقومة المصقولة. أسود: يعني نفسه.

(٥) ديوانه ص ١٠٠

(٦) ديوانه ق ٦٠ ص ٣٠٧ بنو عباد وبنو مالك الذين يشير إليهم الأعشى هم أبناء صنيعة، وهم أخوة (سعد بن ضبيعة) بيت الأعشى، يعاتبهم عتاب أهل البيت. فوقها: أي فوق الأرض. سنحت: عرضت. الشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح. سميت كذلك ليريق أسلحتها. الفأل: التيمن والطير. الجلال: القتال. نغتلي: نسرع. الحال: لواء الجيش. نوجهه: نسوقه.

لقد تمخض عن كثرة دوران كلمة (الموت) ومرادفاتهما على ألسنة الشعراء الجاهليين بعمامة (وذلك انعكاس طبيعي لكثرة حروب العرب) بعض المزاوجات اللفظية المحكمة، التي يبرز الطرف الأول فيها بقدرته الفائقة على (تجسيم) الطرف الثاني ووصف هيئته. ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك (حبال الموت) في قول الخنساء:

كم من مناد دعا و الليل مُكْتَنَعٌ نَفَسَتْ عنه حبالَ الموت مكروب^(١)
أو (حبال المنايا) في قول عبيد بن الأبرص:

وللمرء أيام تُعَدُّ وقد رعت حبالُ المنايا للفتى كلَّ مرصد^(٢)

وتبدو المناسبة بين ط ١ وط ٢ فيما سبق قوية؛ فقد اختار عبيد والخنساء كلمة (الحبال)، التي توحى بالوقوع في أسر الموت وعدم الفكك منه. وإذا تجاوزنا مزاوجات الموت في الشعر الجاهلي، قابلتنا فيه مزاوجات أخرى، تتمتع بقدر هائل من الإيحاء بالمعنى، ومن ذلك (أقحوان الشيب) في قول المرقش الأكبر:

٢- رأت أقحوانَ الشيب فوق خَطيطة إذا مُطرت لم يستكنَّ صُوابها^(٣)
فالأقحوانَ نبت له زهر أبيض والشيب بياض في شعر الرأس

فالمناسبة بينهما تكمن في اشتراكهما في لون واحد منتشر. وأحسب أن الشاعر قد اختار (الأقحوان) بخاصة لإيحاؤه بياض شعره أيضاً بياضاً ناصعاً. وكأنه قد بلغ من العمر مبلغه. فلم يبق في شرعه أثر للسواد.

ومن المزاوجات الفريدة في الشعر الجاهلي، التي تفاجئنا بهذا الجمع العجيب الغريب بين طرفيها (لبن المعامع) في قول عنترة:

وفي الحرب العوان ولدت طفلاً ومن لبن المعامع قد سُقيت^(٤)

وربما كانت جملة (ولدت طفلاً) هي التي استدعت كلمة (اللبن)، بل ربما كانت هي الأم التي أنجبت تلك المزاوجة الطريفة بكاملها.

(١) ديوانها ١٤ مكتنع: دان، حاضر. مكروب: محزون، نعت لمناد.

(٢) ديوانه ص ٦٨

(٣) المفضليات (مفضلية ٥٣) ص ٣٦ الخطيطة: أرض لم تَطُر بين أرض مَطُورتين شبه بها رأسه لأنه لا شعر فيها كالحطيطة لا نبت فيها، إذا فقدت المطر. الصواب: المطر. لم يستكن: لم يمكث.

(٤) ديوانه ص ٧٨

ومهما يكن من أمر، فإن (لبن المعامع) توحى بطول اعتياده الحرب، فلم يدخلها شيخًا، وإنما غذى من لبنها، اشتد عوده عليها، وصقلته بتجاربها.
ونلاحظ فيما سبق ملحوظتين أساسيتين:
أولاهما: أن ط ١ = محسوس دائماً.

وأن ط ٢ = مجرد في معظم الحالات.

وكان ط ١ هو المؤثر، وط ٢ هو المتأثر، وذلك يبدو في دور ط ١ - داخل
المزاوجة - في الإيحاء بالمعنى، بالإضافة إلى تجسيم ط ٢ وتشخيصه.
والأخرى: أن من أهم المزاوجات اللفظية النمطية في الشعر الجاهلي هي تلك
التي يكون ط ٢ فيها عبارة عن كلمة (الموت) أو أحد مرادفاتها، وغالبًا ما يكون ط ١
في هذه المزاوجات كلمة مثل (كأس) أو (سهم) أو (بحر) ونحوها.
